

الباب الرابع

الثورة والقضاء على العهد القديم

من ٥ مايو سنة ١٧٨٩ — ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩

الفصل الأول

لويس السادس عشر والازمة

ولى لويس عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كما أسلفنا فى العشرين من عمره وهو آخر من كان ينبغى أن يتقدم إلى تسيير سفينة الحكم فى ذلك الجو العاصف وتلك اللجة الفوارة لو أن فى الأمر خيارا لمن يتولى الملك . ذلك لأن الأزمة التى كان حتما عليه أن يعالجها كانت تستلزم رجلا ثاقب الرأى ماضى العزيمة فشاءت الأقدار أن يتولى علاجها عديم الرأى خائر الهمة وأن يتزوج من خرقاء فضولية حمقاء ، وأن يلتمس المعونة ممن حوله فلا يصيب الاكل نفعى رجعى يعمل لمصلحة نفسه أولا ثم يعكس على الملك رغبة



لويس السادس عشر

في الإصلاح ويجارى الملكة في خرقها ويدفع الشعب الهاج في
سبيل الثورة خطوة جديدة

(١) فترة الإصلاح :

وجلس الملك في بدء عهده يفكر فيمن يكون وزيرا له ورئيسا
لحكومته فقرر رأيه أخيرا على تعيين (ماشولت) ولكن أخته مدام
أديلايد تدخلت في آخر لحظة وأرسلت نفس الخطاب الذي كان
معينا به ماشولت الى الكونت (مورپا) وهكذا تم تعيين رئيس
وزارة لويس السادس عشر (١).

وكان مورپا هذا وزيرا في عهد الملك لويس الخامس عشر
ولكنه أقصى عن الحكم وظل مغضوبا عليه بقية أيام ذلك الملك
فلما رشحته مدام أديلايد لهذا المركز الجديد جعل أول همه أن يتشبت
به وأن يرسم خططه السياسية بما يتفق مع هذه الغاية الشخصية
فكان لا يمتنع أن يرجع اليوم في قضاء قضاه بالأمس متى آنس فيه
خطرا على مركزه ولا يتردد في أن يخاع اليوم وزيرا عينه بالأمس
في وزارته متى أوجس منه خيفة على نفوذه . وظلت سياسة
فرنسا تترجح وتتذبذب مع اهواء هذا الوزير حتى مات سنة ١٧٨١

فتولت الملكة بعده تسيير الأمور وتعيين الوزراء وكانت في إشرافها على الملك أشأم من وزيره الذي عينته له أخته
ترجو : (TURGOT)

غير أن موريا وإن كان في نفسه قليل الاهتمام بالإصلاح لم يكن يرى بأساً من أن يقوم غيره بما لا يكون في إجراءاته خطر عليه هو شخصياً . فعين [ترجو] ليكون وزيراً للبالية في وزارته وترجو في ذلك اليوم أقدر أبناء فرنسا على تولى شؤونها المالية وتنظيم إدارتها ؛ وكان دخل الدولة عند تولية الوزارة ٢١٣ مليوناً من الجنيهات والمنصرف نحو ٢٣٥ مليوناً . فكان العجز حوالى ٢٢ مليوناً ولكن لم تمض عليه في الوزارة سنة ونصف سنة حتى بلغ الوفرة في خزائن الدولة نحو ١١ مليون جنيهاً . غير أنه لم يكن ليصل الى هذه النتيجة السارة الا بالتقشير والاقتصاد وهذا ما دعا الى أن يغضب عليه رجال البلاط الذين لا مرتزق لهم من غير الاسراف والتفريط . واستاء الأشراف كذلك وأوجسوا من سياسته الاقتصادية على امتيازاتهم وسخط عليه رجال الدين أيضاً ولا سيما لأنه كان صديقاً حميماً للفولتير (الملاحظ) . وتصادف وقوع مجاعة زادت في سخط الأهلين على الحكومة . وكانت مدعاة لقيام الفتن والمظاهرات . وأوشك ترجو أن يتزعزع مركزه بما سارع الاشراف

الى اتهامه به عند الملك من سوء التدبير وتحميلة مسئولية الموقف .
ولكنه نجح أخيراً فى استعادة مكانته عند الملك والحصول على
رضاه مرة أخرى حتى لم يتردد لويس فى اعلان اعجابه بسلوكه
والتصريح بأن ليس على ظهر فرنسا كلها من يحب الشعب الفرنسى
غيره هو... وترجو

فتألب عطاء الأشراف والاكليروس على هذا العدو المشترك
وتأمروا عليه خشية أن يكون بقاؤه فى مركزه قاضياً على نفوذهم
وئارت الحزازات فى نفوس الوزراء وبخاصة كبيرهم موريا فعول
على التخلص منه بأى ثمن كان . وشرع يتصديه فى جميع مشروعاته
واصلاحاته ولكن ذهبت جهوده كلها عبثاً فى هذا السبيل ولما
أعيتة الحيلة فى حمله على تقديم استقالته بنفسه . لجأ الى الوقعة به
والدس عليه . فاصطنع ورقة قلد فيها خط ترجو وضمنها قذفاً فى
حق الملك والمملكة ثم قدمها للويس فتار لها واحتد . وأقال من
خدمته الوزير الوحيد الذى كان يرجى له الخلاص على يديه وهكذا
انسحب ترجو مكرهاً من ميدان العمل وأدركته منيته بعد ذلك
بقليل (سنة ١٧٨١ م)

نكّر : (NECKER)

أسندت وزارة المالية بعد ذلك الى نكّر . وهو رجل سويسرى
من كبار المالىين نشأ فى مدينة جنيف بلدة روسو الكاتب القدير



نكر

ثم نزل بفرنسا كما فعل سلفه العظيم وكانت سمعته المالية الطيبة سبباً في اسناد هذا المنصب إليه . أما خطته فكانت تركز على تدبير دخل الدولة حتى يكفي حاجاتها العادية . فاذا قامت بالبلاد حاجة الى مشروعات أخرى غير منظورة فالوسيلة الى تحقيقها عقد القروض مع الدولى الأخرى على أن تكون هذه القروض بأقل ربح ممكن . وكان لا بد لتحقيق ذلك من تحسين سمعة البلاد المالية فلجأ الوزير الى خطة جديدة لم تكن اعتادتها البلاد من قبل وهى نشر حسابات الدولة على الجمهور حتى يطالع عليها الجميع وبذلك تنشأ الثقة المالية التى كان ينشدها . ولكى يضمن لهذا النظام ان يظل راسخاً ثابتاً رأى ان لا تجبى ضريبة جديدة الا بعد موافقة الأهالى عليها . فكان عمله هذا تمهيداً لانهقاد [الجمعية العمومية] التى تعتبر فى التاريخ نذير الثورة وفتحة عصرها .

ولقد كان من المنتظر ان تنقشع امام هذه الخطة الحكيمة التى رسمها نكر أشباح الضيق المالى الذى كانت تعانيه فرنسا منذ زمان لولا اشتراكها فى حرب استقلال الولايات الأمريكية وتورطها فى ديون جديدة أفدحتها وكانت سبباً فى زيادة تخرجها وارتباكها .

اما هذه الحرب فسببها ان انجلترا ارادت فرض ضرائب جديدة على مستعمراتها الأمريكية فنازعتها المستعمرات فى شرعية تلك

الضرائب وانتهى الأمر بوقوع الحرب بينهما فقتلوع كثير من الفرنسيين للقتال في صف الأمريكيين انتقاما لفرنسا من عدوتها انجلترا التي اغتالت كثيرا من مستعمراتها في (حرب السبع السنوات) وظل تيار المتطوعين يتدفق ويطنغى إلى أن تخرج مركز الحكومة وأصبح من المحتم عليها أن تسير شعور الأمة . فتشترك اشتراكا رسميا في هذه الحرب وأخيرا شجعها على خوض غمار هذه المعركة ما حصل عليه الثوار من الانتصارات الباهرة التي لم تدع شكاً في نتيجة الحرب وأنها سوف تدور الدائرة فيها على الانجليز . فقررت فرنسا الانضمام الى الولايات الامريكية ومن حسن حظها أن انجلترا لم تفلح في الحصول على معاونة أية دولة من دول اوربا . فكان اجل الحرب لذلك قصيرا . وخرجت منها فرنسا منصوره ظافرة ولكنها خرجت كذلك وقد لوثت رجالها عدوى الثورة وأفرغت خزائنها نفقات الحرب

وهكذا انعكست تدبيرات نكر ونقض غزله وبددت الحرب في فترة قصيرة ما جمعه يده في الليالي الطوال (١٧٧٧-١٧٨١م) فلم ير أمامه مفرعا يرجع إليه إلا ما كان قد رسمه ترجو قبله من خطط الاقتصاد في الوظائف والأقلال من الامتيازات فكان جزاؤه على ذلك ما جوزى به ترجو أيضا من قبل واعتزل الخدمة سنة ١٧٨١م .

(ب) الوزراء المفسدون :

استقال نكرومات موريا بعده بقليل وظهرت ماري أنتوانت علنا في ميدان السياسة والحكم . وكانت قد بدأت تفقد شخصيتها المحبوبة المحترمة في نظر الشعب الفرنسي لكثرة ماذاع حول اسمها من التهم بالحق وبالباطل فكان بعض الناس يتهمها بأنها تكره الشعب الفرنسي بسبب جنسيتها النمساوية فبادلها كراهة بكراهة . وكان بعضهم يتهمها بتبديد مال الدولة على ملابسها ورياشها وخدمها وكلابها فبادلها بتبديد مال بتبديد سمعة وكان بعضهم يتهمها بأنها تحتقر الملك وتخونه فكان نصيبها منهم التشهير والتعير والاحتقار . وولى وزارة المالية بعد نكرو في هذا العهد الجديد من لم يقيم فيها غير شهر معدودة أضاف أثناءها إلى ديون المملكة ٣ ملايين من الجنيهات ثم استقال .

نجاء بعده آخر وطالت إقامته حتى بلغت سبعة شهور كان كل عمل من أعماله في خلالها لسانا ناطقا بأن فرنسا تعلن إفلاسها للجميع وأخيرا جاء دوره فطرد وتقدم نساء البلاط بالرجاء إلى الملكة لتأمر بتعيين (كالون) وزيرا للمالية فتم تعيينه .

أما الرجل فكان أسخف وأجهل من ولى الامر في محنة كالتى

كان يجتازها الشعب الفرنسى فى ذلك العهد ! جعل دأبه إخفاء الحقيقة وهمه الأول إرضاء الملكة وإجابة مطالب البلاط . وأكثر من الحفلات والزينات الى حد أدهش الناس جميعا وألقى فى روعهم أنه بز ترجوفى سياسة المالية وفاق نكر . ولكن تحقيقا أجرى بعد ذلك أسفر عن أنه عقد قروضا كثيرة . وأن العجز السنوى قد زاد زيادة عظيمة فتارت عليه الخواطر وأصبح موضع سخط الجميع واحتقارهم . فرفته الملك .

ورقى الوزارة بعده (برين) . وكان موقف البلاد المالى قد تعقد الى الحد الأقصى وبلغ ارتباكها الغاية التى ليس ورامها غاية فان الاقتصاد الذى كان خير علاج فى الماضى أصبح لا محل له فى الأزمة الراهنة . ولم يبق للنجاة غير طريق الضرائب وهو ما لا طاقة لدافعى الضرائب اذ ذاك باحتماله . أو طريق القروض وهو ما ليس إليه من سبيل بعد ضياع سمعة البلاد المالية . أو طريق التضحية من جانب أصحاب الامتياز وهو ما جعلته أنانيتهم حلما من الأحلام يراه الناس فى المنام .

وهكذا دفع برين قصر نظره الى إدخال رأسه راضيا مختارا فى هذه الشبكة المختلة وكانت تخبطاته سببا فى أن تتفق كلمة (برلمان باريس) — وكان بمثابة محكمة عليا — (ومجلس الأعيان) والهيئات الدينية ،



برين
Brienne

وعامة الشعب ، على وجوب عقد الجمعية العمومية التي ما كادت تجتمع حتى انصرفت وجهتها الى غير ما اجتمعت له وبدلا من أن تنظر في علاج الأزمة المالية دخلت مع الملك في نزاع سياسى أفضى الى عصيان أوامره والاشتباك معه في تلك المعركة الدموية الطويلة التي تعرف في التاريخ باسم الثورة الفرنسية .

وبيان ذلك أن برين تقدم الى برلمان باريس بمشروع قانون يقضى بأن تشترك طوائف الأمة جميعها في دفع الضرائب فرفضه البرلمان واستنكره . ولم يكن هذا البرلمان هيئة نيابية كما يتوهم القارىء من اسمه ولكنه كان هيئة مؤلفة من بعض رجال القانون يستعين بها الملك في اصدار أوامره . فنشأ أداة في يده ومصنعا لعمل المرسومات والقوانين . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الملك حربا . ذلك أن المراكز فيه أصبحت تباع لمن يدفع للحكومة ثمنها ومن حق من يدفع أن يدعى لنفسه شيئا من السلطة . وكانت العادة قد جرت بأن لا يصدر عن الملك أمر الا بعد تسجيله في هذا البرلمان وقرار أعضائه له . فاكتمسب الأعضاء بذلك صفة تشريعية لأنهم لو امتنعوا عن الموافقة على أى قانون لتعطل أثره وبطل فعله . ولذلك رأى الملك أن يحتاط لمقاومة البرلمان واعتراضه . فابتكر اجراء آخر وهو أنه اذا حضر بنفسه نظر قانون من القوانين فلا بد

للبرلمان من اقراره والموافقة عليه ويعرف هذا الاجراء باسم
(Lit de Justice) أو كما يسمونه « سرير العدل » .

ولقد انتشر هذا العرف في الأقاليم فأصبح لكثير منها برلمانات
يرجع إليها قبل اصدار القوانين الخاصة بتلك الأقاليم . واكتسب
أعضاء هذه البرلمانات من الامتيازات ما جعل مصالحهم في آخر
الامر تتضارب مع مصالح الملك والحكومة فانضموا الى قوة المعارضة
التي كانت تحارب عسف التاج ووزرائه ولكن انضمامهم هذا لم
يكن عن حب للشعب وتأيد لمطالبه وإنما كان كما فهمت تحقيقا
لاغراضهم الشخصية ومحافظة على مصالحهم المادية .

وفي عهد لويس الخامس عشر أراد الوزير (مويو) أن يتخلص
من هذه البرلمانات جملة واحدة لتنتقل يده في هذه البلاد بما
يشاء سيده فقرر الغاءها وأنشأ مكان برلمان باريس هيئة أخرى
مؤلفة من ٧٥ عضوا يعينهم الملك بنفسه وقد أطلق الناس على
هذه الهيئة اسم (برلمان مويو) استخفافا بها وبمنشئها .

فلما مات لويس وسقط مويو ألح الناس في طلب هذه
البرلمانات واعادتها فاعترض تروجو وزير المالية على العودة الى تلك
الهيئات الرجعية التي لم تكن تعرف غير مصالحها الخاصة . ولكن
الشعب كان قد نسى عنها كل شيء . ولم يبق ماثلا في ذهنه عنها



الاقوة معارضتها للملك وأنها كانت ضحية من ضحايا استبداده .
ولذلك أصر على اعادتها فأعادها موريا وزير لويس السادس
عشر وهو لا يرجو بذلك الا الحظوة عند الشعب والحصول على رضاه .
وأخيرا جاء برين الذى نتحدث عنه وعرض مشروعه الجديد
على برلمان باريس هذا كما أسلفنا فرفضه البرلمان ولكن لويس
استعمل حقه المعروف [بسرير العدل] فوافق البرلمان على المشروع
غير أنه قدم احتجاجا على تصرفات الملك ووزيره فى هذا الموضوع
وكان جزاؤه على ذلك أن نفي أعضائه من باريس ولكن برين عاد
فوجد أنه لاغنى له عن البرلمان فيما ينوى إصداره من القوانين
الأخرى فاستعاد الأعضاء من جديد وعرض عليهم مشروع قانون
يحول للحكومة جباية ضريبة جديدة فرأى أعضاء البرلمان أن يكتسبوا
عطف الأمة بأحالة الأمر عليها والأشارة بوجوب استفتائها فى تقرير
هذه الضريبة واقترحوا بناء على ذلك دعوة « الجمعية العمومية »
وهى هيئة نيابية تتألف من نواب الطوائف الثلاث : الأشراف ،
والأكليروس ، والعامة ، ولكنها لم تكن دعيت للاجتماع منذ سنة
١٦١٤ وكانت فكرة برلمان باريس التى يرمى اليها من هذا الاقتراح هى
كما أسلفنا الاحتماء فى رأى العام . واحراج موقف الحكومة . ولكن
ما كان ليبتئس لويس ولديه (سرير العدل) الذى ابتدع لمثل هذا
الموقف ففاجأهم (بسرير) فوافقوا بعده على القانون ثم انتقم لنفسه

من زعماء المعارضة بنفيهم فتعالت أصوات الاحتجاج وازداد عطف الأمة على البرلمان وأخيرا فكر برين التعس في أن يقتبس عن مويو خطته الاستبدادية العتيقة ويلغى عمل البرلمان ولكن عاصفة السخط والاستنكار التي هبت في وجهه عقب ذلك أرغمته على العدول عن رأيه والعودة الى العمل بمعاونة الهيئات الرسمية التي تعرفها البلاد. فعقد مجلسا من رجال الدين أملا منه في الحصول على شيء من مال الكنيسة ولكن المجلس بدأ قراراته بطلب استدعاء الجمعية العمومية فلم يبق أمام الحكومة بد من الرجوع الى هذه الجمعية فصدر مرسوم الملك باجراء الانتخابات بحيث تنعقد الجمعية في مايو سنة ١٧٨٩م واستقال بعد ذلك برين واضطر الملك لاستدعاء نكر من جديد.

الفصل الثاني

الجمعية العمومية

لعلك لم تنس بعد أن الحكومة في فرنسا كانت حكومة استبدادية وأن سلطة الملك فيها كانت سلطة مطلقة بمعنى أنه يستطيع أن يعفى المدين من ديونه فلا يبقى لدائنه حق مطالبته بتلك الديون وأنه يستطيع أن يأمر بالقاء أى انسان فى السجن لغير سبب شرعى ومن غير أية محاكمة قانونية فيلقى فيه الى أن يشاء الله وأنه يستطيع كذلك أن يعترض تنفيذ أى قانون فيبقى معطلا كأن ليس له فى الدولة وجود . وصور لنفسك بعد ذلك ما شئت من التصرفات التحكيمية ثم انسبها الى سلطة ملك فرنسا فى ذلك العهد تكن غير متجاوز فى قولك حدود تلك السلطة .

ولكن الملك كان يرجع الى بعض الهيئات الاستشارية من حين الى حين للاستئناس برأيها فيما يريد أن يقدم عليه من الأمور دون أن يتقيد برأى تلك الهيئات ودون أن يكون لها عليه أى سلطان . وكان من بين تلك الهيئات هيئة عامة تمثل طوائف الأمة الثلاث : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت هذه الهيئة النيابية

العامّة تسمى « الجمعية العمومية » وكان نواب كل طائفة من طوائفها يجلسون منفصلين في مداولاتهم وقراراتهم . لكل جماعة منهم قاعة خاصة بهم لا يجالسهم فيها نواب الطائفتين الآخرين . وجرت العادة أن تعطى كل جماعة من هذه الجماعات صوتها فيما استشيرت فيه . فكان الرأي الراجح هو الذى يجتمع عليه صوت مجلسين من المجالس الثلاثة وكانت الأغلبية بذلك دائماً في جانب الأشراف ورجال الدين نظراً لاتفاق صوألهم في وجهة نظرهم إلى الأمور واختلافهم في ذلك عن الطائفة الثالثة . وهى طائفة الشعب . ولقد انعقدت هذه الجمعية العمومية للمرة الأخيرة سنة ١٦١٤ م ثم لم تدع للانعقاد بعد ذلك حتى وقعت الأزمة المالية التى نحن بصدها في عهد لويس السادس عشر وكان ما كان من إصرار الهيئات الأخرى جميعها على وجوب استفتاء الأمة ممثلة في هذه الجمعية فصدر قرار الملك في ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨ م بإجراء الانتخابات العامة وتحديد يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ لانعقاد الجمعية في قصرها بفرساي . وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى أن الشعب الفرنسى كان قد تطور تطوراً جسيماً منذ سنة ١٦١٤ م بحكم ما مر عليه من الحوادث الجسام في عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر وبحكم ما سبق لنا إيانه من العوامل عند البحث في أسباب الثورة

فكان من غير الميسور أن تخرج فرنسا سنة ١٧٨٩ م هيئة نيابية تشبه في خضوعها واستسلامها تلك الهيئات التي كانت تخرجها قبل سنة ١٦١٤ ولكن الملك ورجال البلاط نسوا هذا الاعتبار وأغفلوه أو قل أنهم تناسوه عامدين وتغافلوا عنه قاصدين . فأنهم حينما قر رأيهم على عقد هذه الجمعية ظلموا يرجون أنها تلتقي كما كانت تفعل في العصور الخالية ثم تنظر فيما يعرض عليها لتبدي رأيها فيه ثم تنفض عقب فراغها من الادلاء بهذا الرأي .

أما الشعب فإنه كان يتشوق الى ذلك العصر الذي يستطيع فيه أن يحرر نفسه من قيود الماضي فيطلق صوته ليلاً به الأسماع ويطلق يديه ليلاً بها ميادين الأعمال . فما هو الا أن دعا الملك إلى هذه الانتخابات العامة حتى رأى الشعب أن الفرصة التي يترصدها قد حانت فشمر وتأهب حتى لا تفر منه وليأخذ بناصيتها وهي مقبلة . وأصر من البداية على أن يكون نوابه قدر نواب الأشراف ورجال الدين مجتمعين حتى لا يضيع صوته بجانب صوتيهما . وكثرت في هذا البحث كتابات المفكرين والعلماء وانضم نكر الى رأى الشعب ونصح بقبول مطلبه فتقرر أن يكون عدد نواب الشعب مساوياً لمجموع نواب الأشراف ورجال الدين . وكانت هذه أول حلقة في سلسلة الانتصارات الطويلة التي أحرزها الشعب في نزاعه مع الحكومة .

ثم بدأت عملية الانتخاب في أنحاء فرنسا . وكان الناخبون في كل دائرة يجتمعون ويعلنون عن رغباتهم ومطالبهم قبل أن ينتخبوا نوابهم . ويدونون هذه المطالب في محاضر لتكون بمثابة عهد على نوابهم في الجمعية . وبذلك توفرت لفرنسا مجموعة كاملة وافية من تلك المطالب التي اعتبرت فيما بعد برنامجا عاما تولى رجال الثورة تحقيق ما جاء فيه رويدا رويدا . واليك أهم مادون من تلك المطالب :

- (١) أن لا تقرر الجمعية العمومية ضريبة ما إلا بعد أن يحقق دين الحكومة وتضمن حرية الأفراد .
- (٢) أن تتعهد الجمعية العمومية بوضع دستور للبلاد :
- (٣) أن يتقرر في هذا الدستور :
 - (أ) مبدأ مسؤولية الوزارة .
 - (ب) مبدأ سيادة الأمة .
 - (ج) مبدأ المساواة أمام القانون والمساواة في الضرائب والوظائف .
 - (د) وأن يكون الانتخاب أساس كل سلطة .
- (٤) أن تجتمع الجمعية العمومية في مواعيد محدودة دورية .
- (٥) أن يلغى نظام (الخطابات المختومة) .

أما الحفلات الانتخابية فكانت الحماسة فيها بالغه أقصى حدودها ولم تكن تسمع من منابرها الا أشد الحملات على النظم العتيقة ووجوب التخلص من الماضى ودفنه وابتداء حياة جديدة يكون عمادها صوت الشعب ويكون شعارها ارادته .

وهكذا كان الملك وحاشيته وأشرافه فى واد بالنسبة لهذه الجمعية العمومية والشعب فى جهة مقابلة يسير فى واد آخر . وأخيرا حل يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ م وملاً الناس طرقات باريس المؤدية الى فرساي واحتشدوا فيها مبكرين ليشهدوا ذهاب الأعضاء الى دار النيابة فكانوا كلما مر بهم نائب من نواب الشعب صاحوا باسمه وهتفوا بحياته وزودوه بعبارات التحية والتشجيع فاذا مر بهم نائب من نواب الأشراف أو رجال الدين أمسكوا ووجموا وقابلوه بالصمت الرهيب .

وأخيرا أيضا تكامل الجمع داخل القاعة واتخذ رجال الدين مقاعدهم على اليمين وجلس الأشراف على الشمال وكانت مقاعد نواب الشعب تجاه العرش فى مؤخر القاعة . ولما دخل نكر قوبل بالحماسة الشديدة . ولاغرو فانه كان رجل الساعة الذى تتجه اليه أنظار العامة وينعقد حوله رجاءهم . ثم أقبل بقية الوزراء وجلس كل واحد منهم فى مكانه الذى أعد له . وعند ذلك ظهر الملك

وتبعته الملكة والأمراء ومن ورائهم حاشية فاخرة ساطعة لامعة .
 فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف عند دخول الملك وبعد أن
 استوى على عرشه ووضع قبعته على رأسه لبس النواب جميعا
 قبعاتهم على خلاف ما جرى به العرف من بقاء الطبقة الثالثة
 عارية الرأس أثناء الانعقاد . وهى ظاهرة تافهة ما كنا لنروها فى
 هذا الموجز لولا ما توسمنا فيها من المغزى العميق الذى تتجلى
 فيه روح الشعب وعزمه على نحو الفوارق والوقوف فى صف
 واحد مع بقية الطبقات .

واشرأبت الأعناق لاستماع خطاب العرش . فوقف الملك
 وتلا الخطاب الآتى بصوت تملأه العاطفة والانفعال :

« أيها السادة :

ها قد حل ذلك اليوم الذى طال شوقى لحلوله وهاءنا أرى
 حولى نواب تلك الأمة التى أرى من مجدى أن أكون عايتها حاكما .
 ولقد طال المدى على آخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية حتى
 لقد وقع فى الحساب أنها لن تلتقى بعد ولكنى لم أتردد لحظة
 واحدة فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة
 ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السعادة .

... ..

وأنة ما من مقصد نبيل يرجى منه الخير للمصلحة العامة وما من واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الأول لشعبه الا ولكم أن تطمعوا فيه عندي وأن الأمل الذي يملأ قلبي والأمنية الحارة التي تملك على نفسي هي أن أرى هذا المجلس وقد ساد فيه التفاهم والوفاق وأن أرى أن هذا الاجتماع يكون فاتحة عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . ان هذا يكون لى من الله خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتى لشعبى » أه .

فقابل النواب هذه الأمانى الطيبة والوعود الحسنة بالتقدير العميق والتصفيق الشديد . ثم قام وزير الحقانية وكان خطابه بمثابة استعراض لأفضال الملك وأنه لم يتردد فى اجابة مطالب الشعب العادلة فبقى على الشعب واجب الحذر من الاستماع للمتوسلين أصحاب البدع وأنصار التجديد ! والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يحدث انقلا با خطيرا فى نظم البلاد .

وخطب بعده نكر وكان الشعب يرتقب دوره بفارغ الصبر لعلو مكانته فى النفوس ولحسن بلائه فى المطالبة بتسوية نواب الشعب بنواب الطائفتين الآخرين ولكن نكر ظل يتكلم بالأرقام ويستعرض من حسابات الدولة ما أثقل به رأس الجميع وبعد أن استغرق حديثه فى هذه الشؤون نحو ثلاث ساعات أجهد فيها أذهان

سامعيه وأكدها ختم خطابه بكلام فاتر كان يراعى فيه أن لا يخرج مركز الحكومة وأن لا يتورط مع الشعب .

على أن المشكلة التي كان ينبغي أن يعالجها خطاب العرش وأن يناقشها الوزراء في خطبهم التالية بقيت لم تمس . وكانت أول ما شغل المجلس بعد فراغه من الاستماع لتلك البيانات المطولة التي لم تصرف ذهنه عن الاشتغال بها . وذلك أن الشعب إنما قصد إلى الاشتراك مع نواب الأشراف ورجال الدين في المداولات والتصويت حينما مهد لذلك بمطالبة الملك بأن يصدر ذلك القرار القاضي بأن يكون عدد نوابه مساويا لنواب الطائفتين الآخرين . ولكن الأشراف ورجال الدين أصرروا على أن ينفرد كل مجلس بنفسه وأن تصدر الأصوات بالمجالس لا بالرءوس ليفسدوا بهذه الطريقة على نواب الشعب ما كسبوه بكثرة عددهم فبذل نواب الشعب ما استطاعوا من الجهود للتوفيق وتوحيد الكلمة ومحو الفوارق بين الطوائف في الجمعية ولكن حبط سعيهم أمام عناد الأشراف وهكذا نشأت جرثومة ذلك النزاع السياسي الهائل الذي انتهى بقلب نظام الحكم في فرنسا .

الفصل الثالث

الجمعية الوطنية

الثورة تبدأ يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ظل نواب الطبقات الثلاثة في أخذ ورد نحو خمسة أسابيع خرجوا منها كما دخلوا فيها متنازعين غير متفقين . فعول نواب الشعب أخيرا على العمل بمفردهم وقرروا دعوة نواب الأشراف ورجال الدين الى الحضور بقاعة الشعب للقيام بالواجبات التي انعقدت الجمعية العمومية من أجلها وقرروا كذلك أنهم يمثلون نحو ٩٦ ٪ من مجموع الأمة فهم لذلك أصحاب السلطة الشرعية فيها . واجتمعوا فعلا في اليوم السابع عشر من شهر يونيه (١٧ يونيه سنة ١٧٨٩) وأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية منكرين بذلك وجود الطوائف الأخرى .

وهنا لا ينبغي أن تفوتك أهمية هذا القرار فلقد كان الملك وحزبه يستندون الى أساس قانوني حين كانوا يقولون إنهم هم أصحاب السلطة بحكم التقاليد وبحكم الواقع . أما الشعب فلم يكن

يستند إلا الى النظرية الحديثة . نظرية سيادة الأمة التي تلقاها عن روسو وغيره من الكتاب . فترى من ذلك أن الصراع في الحقيقة كان قائماً بين القانون القديم الذي جرى العمل به ونظرية سياسية حديثة يريد الشعب أن يتمسك بها ويحلها محل ذلك القانون القديم .

قرارات ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

والقد أعلن نواب الشعب في يوم ١٧ يونيه أنهم هم « الجمعية الوطنية » . وقرروا بعد ذلك في نفس الجلسة عدم شرعية الضرائب الحالية ولكنهم مع ذلك قرروا الاستمرار في جبايتها مادامت الجمعية منعقدة وضمنوا بهذا القرار الحكيم أن لا يفاجأوا بمرسوم يحل مجلسهم ويكون سبباً في إيقاف دفع الضرائب . وقرروا كذلك انشاء لجنة للتموين كي تنظر في مشكلة الغذاء وقلته وما يهدد البلاد من المجاعات وكانت هذه القرارات أول صوت رفعه الشعب في وجه السلطة القديمة . فاذا أردت أن تحدد بدء الثورة تحديداً علياً دقيقاً فانقش في لوحك هذا التاريخ — ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩

الفصل الرابع

المين التاريخية

كان يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ في تاريخ فرنسا يوماً مشهوداً له ما بعده . ولقد صعق الأشراف ورجال البلاط لوقع قرارات الجمعية الوطنية فيه فأجمعوا رأيهم على وجوب ذهاب الملك الى دار الجمعية في موكب رسمي ليعلن أن قراراتها التي صدرت في ذلك اليوم لاغية وليأمر بوجوب انفصال نواب الطبقات الثلاث وليضع بنفسه برنامج الأعمال التي يتناقش فيها المجلس ولو أنهم أفلحوا في مفاجأة الجمعية بهذه المناورة الملكية لأمكن احتمال نجاحها ولكنهم آتسوا من بعض رجال الدين ميلاً الى الانضمام للجمعية العمومية فأشفقوا من ذلك وخشوا أنه اذا تم كان تعزيراً لمرکز الجمعية فرأوا أن يحولوا دون انعقادها حتى يحل موعد تلك الزيارة الملكية التي أعلنوا أنها ستكون في ٢٣ يونيه . وأغلقت قاعة الاجتماع في ٢٠ يونيه بحجة أن العمال سيتولون طلاءها واعدادها لدخول الملك . فلما التقى النواب على بابها المغلق في صبيحة ذلك اليوم واعتبرضتهم قوة كانت مرابطة هناك لمنع اجتماعهم أخرجت صدورهم واندفع بعضهم



القسم التاريخي

يقترح أن يتوجه الأعضاء الى قصر الملك نفسه ويعقدوا اجتماعهم تحت نوافذه ولكنهم أخيرا انصرفوا الى مكان فسيح مجاور كان يتخذ (ملعبا للتنس) وهناك تباحثوا في الأمر فقرروا القرار الآتي :
 « انه لما كانت مهمة الجمعية الوطنية هي وضع دستور للبلاد وتنظيم القواعد الأساسية للقانون العام وتأييد المبادئ الحقيقية للمملكة فلا يحول أى مانع دون اجتماعها وموالاتة أبحاثها ومداولاتها في أى مكان تنعقد فيه وحيثما يجتمع أعضاؤها فالجمعية الوطنية تعتبر منعقدة بصفة رسمية . وعلى ذلك تقرر الجمعية أن يقسم أعضاؤها اليمن على ألا يتفرقوا ولا ينفرد عقدهم وأن يجتمعوا في أى مكان تدعو اليه الظروف الى ان تتم وضع دستور للمملكة وتقييمه على دعائم ثابتة » .

وقد كان الأعضاء يقسمون هذا القسم التاريخي العظيم بحماسة شديدة والشعب محيط بهم في صمت يتجلى فيه عطفه عليهم وتأييده لهم . وقد رسم المصور الشهير (دافيد) صورة رائعة لهذا الاجتماع ترى اليوم في متحف اللوفر ويتوسم فيها الناظر كل ما كان يحف بهذا المشهد العظيم من الروعة والجلال (١) .

(١) « الجمعيات الوطنية » تأليف الأستاذ عبد الرحمن الراجحي .

الفصل الخامس

وقفه ميرابو الشهيرة

عاد النواب في اليوم التالي الى ملعب التنس فوجدوا أن بعض
الأمراء قد أعدوا للعب فتوجهوا الى كنيسة « سان لوى » حيث
انعقدوا برا بقسم الأمس وهنا انضم اليهم كثير من رجال الدين
واستقبلهم نواب الشعب في صفوفهم بالترحيب .
ودخل الملك القاعة في ٢٣ مايو وعليه كل مظاهر الأبهة .
ومخيلة العهد القديم وخطب فيمن بها قائلا أن مندوبى الأمة لا بد
أن يكونوا طبقات ثلاثا كل يعمل على حدته . وأنه ينبغي على الجمعية
أن تكف عن الخوض فى الموضوعات المثيرة للنفوس كموضوع
الامتيازات وغيره . وأعلن عدم شرعية (قرارات ١٧ يونيه) وبني
على ذلك أنها تعتبر لاغية وأمر بحل المجلس على أن تجتمع كل طائفة
من طوائفه ابتداء من الغد فى مكانها الخاص . ثم ختم حديثه بقوله
« وانى لا قول لكم بحق أنه مامن ملك كان لشعبه مثل ما أنا
لكم . فكونوا معى أ كن معكم والاقمت وحدى بالعمل لتحقيق
مصالح الامة واعتبرت نفسى مندوبها الفرد ! »

وانصرف ومن خلفه ذنب طويل من الأشراف ورجال الدين — أما نواب الأمة فظلوا في أماكنهم ساكنين مطرقين الى أن قام ميرابو فيهم خطيبا وشق هذا الصمت المخيم عليهم بقوله :

« أيها السادة :

انى أعترف لكم بأن الذى سمعتم الآن ربما كان فى صالح الأمة ولكنى أشك دائما فى كل ماتهديه الينايد الاستبداد وأوجس منه خيفة . فما هذه الدكتاتورىة الشائنة . انهم يريدون أن يكرهونا بقوة السلاح على أن نسلك سبيل السعادة التى يرسمونها لنا . فمن هذا الذى يصدر هذا الامر ؟ انه وكيلىكم ! من هذا الذى يضع هذه القوانين ؟ انه وكيلىكم أيضا ! انه هو عين الشخص الذى كان ينبغى عليه أن يتلقى هذه الاوامر عنكم . نعم أيها السادة عنا نحن الذين نمثل ٢٥ مليوننا كلهم ينظرون الينا ويتطلعون الى ما سنحمل اليهم من السعادة ولكن ها أنتم تجتمعون وتناقشون تحت قوة السلاح . فم يخشون علينا ؟ أين هم أعداء الشعب الذين يريدون حمايتنا من أيديهم ؟ اننى أطلب اليكم أن تكونوا عند حد القسم الذى أقسمتموه . ان هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا حتى تضعوا لهذه الأمة دستورا ! » .

ورأى كبير الأمناء أن النواب لم ينفذوا فعاد اليهم وذكرهم
بأمر الملك فأنبرى له ميرابو وصاح في وجهه قائلاً :

« اذهب الى سيدك وأبلغه انا نحن هنا بأمر الشعب ولن
نبرح مكاننا هذا الا مسوقين بأسنة الحراب ! » — وما كاد
ميرابو يتمم كلمته هذه حتى صاح النواب بصوت واحد « نعم
هذه هي ارادة الجمعية » . فانسحب كبير الأمناء . وقام الأب
سيسيس أحد أعلام الجمعية والمحرر لصيغة اليمين التاريخية التي
أقسمها النواب في ملعب التنس فخاطب زملاءه الأعضاء قائلاً :
« أيها السادة ! انكم الآن كما كنتم بالأمس ! ها، ها، ها، للتداول
فيما لدينا من الأعمال » .

فأخذت الجمعية في أعمالها فعلاً وقررت التمسك بقرارات
١٧ يونيو وأعلنت حق الحصانة النيابية بالنسبة لأشخاص النواب
واعتبار كل من يعتدى عليهم مرتكباً لأعظم الجرائم . ولما وصل
الى الملك تفصيل ما جرى رأى من الحكمة ألا ياجأ الى القوة
وقال كلمته المأثورة :

« اذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم (١) » .

(١) الجمعيات الوطنية (للرافعى) .



ميرابو . أبلغ سيدك أننا هنا بارادة الشعب ولن نبرح المكان الا على أسيمة الحرب !

وفى اليوم التالى انعقدت الجمعية وعادت الى صفوفها أغلبية رجال الدين واشترك معهم فى ذلك ٤٣ شريفا كان من بينهم دوق أورليان ابن عم الملك فأرسل الملك فى ٢٧ يونيو الى بقية الأشراف ورجال الدين يوعز اليهم بالانضمام الى الجمعية فساروا اليها كارهين متثاقلين .

ولقد أراد دوق لكسمبرج زعيم الأشراف أن يعترض الملك فى أمره هذا فقال له : « إن هذا الأمر يا مولاي يعتبر بمثابة إعلان من جلالته بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة . والأشراف مستعدون لأن يقدوا جلالتهكم بأرواحهم » . فما كان من الملك الطيب القلب إلا أن أجابه بكلمته المشهورة الأخرى :

« انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى ! » .

الفصل السادس

مقاومة البلاط

وكأنما أخذت رجال البلاط نوبة إزاء هذا الاندحار الذى أصاب نفوذهم على يد الشعب . فتآمروا على الانتقام لأنفسهم وبدأوا باقصاء نكر عن الملك حتى لا يبقى تحت تأثيره هو ومن على شاكلته من المصلحين واكلوا بالملك زوجته ماري انتوانت وأخاه (الكونت أرتوا) ليتوليا اقناعه بوجوب العدول عن خطة المسالمة وضرورة اللجوء الى القوة فى استعادة ما خسرتة الملكية من النفوذ فى الأيام الأخيرة . فما كان أسرع الملك الى الاقتناع بصدق نظرهم والنزول على ارادتهم . ولم يمض غير قليل حتى أحاطت باريس قوة عظيمة لا تقل عن ٤٠.٠٠٠ جندى فلم تطمئن الجمعية الى حشد هذه القوة حول باريس فى تلك الظروف . ووافقت على اقتراح مبرابو الذى يقضى بارسال وفد الى الملك يلتمس منه سحب هؤلاء الجنود . فلما ذهب الوفد أجابه الملك بأنه هو صاحب السلطة المطلقة فى تحريك جنوده حيث يشاء وان هذه القوة لم يقصد بها مع ذلك الا المحافظة على النظام . وأنه ينصح أعضاء الجمعية

بالانسحاب الى ما وراء باريس إن كانوا يخشون من هذه الجنود بأسا .

فأثار هذا الرد جميع الخواطر وجاء محققا لكل ما ساور الأذهان من المخاوف والأوهام واضطربت له المدينة اضطرابا عنيفا وبالغت الصحف في تصوير الحالة وتنافس الخطباء في إلهاب الجماهير وإذكاء حماسهم فكنت لا ترى حيث تسير الا خطيبا يعد للناس ما يتهددهم من الأخطار ويناشدهم القيام في وجه الظلم والظالمين والا جماعة أحاطت به فوقفت تستمع له بأفواه متقلصة الشفاه ووجوه ممتعة اللون وعيون تنبعث منها نوايا الشر ولم يبق لانفجار هذا المرجل الفوار إلا حمالة من حماقات البلاط التي سارت به نحو الهاوية هذا الشوط البعيد وكان جديرا به أن يتوقاها ويتجنبها في هذه الأوقات العصبية ما استطاع . غير أنه ما لبث ان جاد بتلك الحمالة وأوقد الفتنة التي كان عليه أن يحول دون اشتعالها .

ففي اليوم الحادى عشر من شهر يولييه بينما كان نكر وزير الشعب على مائدة غذائه جاءه من الملك رسول برسالة يبلغه فيها أنه حكم عليه بالنفى وأنه يجب عليه مغادرة البلاد في الحال . ففرغ الرجل من طعامه . ولم يفض الى أحد من كانوا معه بفحوى الرسالة واصطحب مدام نكر معه في عربته . وسار بها الى حدود فرنسا .

غير أن ما وقع لنكر في داره في ذلك اليوم لم يلبث أن تجاوزت به انحاء باريس بعد ظهر اليوم التالي . وسرعان ما خرج الناس من ديارهم ألوفا واكتظت بهم الطرقات . وساروا الى حدائق (الباليه رويال) حيث كان يتبارى الخطباء في تهيج عواطف الناس . كل واحد فوق مائدة من موائد الحديقة يحيط به شيعته ومر يدوه . وكان من بين هؤلاء الخطباء في ذلك اليوم (كامي ديمولان) وهو خطيب شاب ميز نفسه في الأيام السالفة بحماسة الفياض وبيان الخلاب . فاحتاط الناس بمائدته ووقف هو بينهم أحمر العينين وفي يده مسدس مشهور ثم قال : « أيها المواطنون ! ليس لدينا وقت نضيعه . لم يكن خلع نكر الا نذيراً بمذبحة هائلة كذبحة سنت برثليو يكون ضحاياها من الوطنيين المخلصين . في هذه الليلة ستقوم الفرق السويسرية والألمانية من ثكناتهم ليزبحونا جميعا . لم يبق أمامنا الا طريق واحد . ذلك أن نحمل السلاح ! » . فقبلت كلماته هذه بصيحات الاستحسان العنيفة . فعاد واقترح عليهم أن يعملوا على تمييز أنفسهم بوضع شارات تجعلهم في وسط المعركة يتعارفون ويتكاتفون . ثم قال :

« فهل تختارون اللون الأخضر — لون الأمل — أم الأحمر لون الحرية ؟ » فصاحوا به جميعا « الأخضر ! الأخضر ! » فوثب



كامي ديولان في الحديقة يخطب الجماهير

ديمولان عن ظهر (منبره) وأخذ بغصن فقطع طرفه ثم وضعه في جانب قبعته فحنا حذوه سامعوه حتى لم يعد يبق في الحديقة غصن أخضر (١) !

وانطلقت هذه الجموع كلها في صورة مظاهرة هائلة كان يتزايد عددها كلما جازت شارعا جديداً . وكان في مقدمتها جماعة يحملون تماثيل نصفية للوزير نكر ولدوق أورليان أيضاً لأنهم سمعوا أنه ستصدر الأوامر بنفيه كذلك كما نفى نكر . فلما بلغوا (ميدان فندوم) لقيتهم شرذمة من الجنود الألمانية فتصدت لهم وأرادت تفريقهم فامطرها المتظاهرون وابلا من الحصى والحجارة فولت امامهم الأدبار . وساروا حتى بلغوا (ميدان لويس الخامس عشر) وهناك قابلتهم قوة أخرى وأطلقت عليهم النار فقتل بعض المتظاهرين وتفرق الباقون . وتعقبهم قائد القوة هو وفرسانه شاهري السيوف فوقع طعناتهم على بعض النظارة ممن لم يشتركوا قط في المظاهرة فبلغ الاستياء منتهاه . وعم التذمر . وانتشرت « الدعوة الى السلاح » في كل مكان !

الفصل السابع

يوم ١٤ يوليه في باريس

سقوط الباستيل

عرفت أنه في يوم السبت ١١ يوليه نفى نكر. وفي يوم الاحد ١٢ يوليه قامت تلك المظاهرات التي أفسدها البوليس وأسال فيها الدماء وتسبب بذلك في انتشار الناس في طلب السلاح. ولقد أدركت الجمعية الوطنية سوء عاقبة هذه الحركة اذا هي تركتها تجري في مجراها ولم تعمل على تلافيتها. فبادرت بارسال وفد الى الملك ليطلعه على حقيقة الخطر الذي بات يهدد البلاد ويلتمس منه سحب الجنود الأجانب من باريس وتسليم المدينة الى حرس من الوطنيين. ولكن الملك رفض هذه المطالب فعاد الوفد يحرر أذيال الخيبة. غير أن هذا لم يفت في عضد الجمعية. بل هياً لها فرصة أخرى لتظهر فيها أنها كانت جديرة بذلك الاحترام الذي سطره لها التاريخ على صفحاته فانها اجتمعت لساعتها وقررت القاء مسئولية الموقف على الوزراء الحاليين الذين خلفوا نكر

وزملاءه كما قررت التمسك بوجوب استبعاد الجنود الأجانب وإنشاء حرس وطني . وأخيراً قررت أنه خوفاً من احتلال الحكومة لقاعة المجلس أثناء الليل ومصادرة الاجتماع يجب أنه لا تنفض الجمعية بل تداوم اجتماعها ليل نهار ويتناوب الأعضاء في ذلك فيجلس بعضهم طول الليل على أن يحل محلهم غيرهم في الصباح . وعين لا فاييت وكيلا للجمعية إشفافا على الرئيس (باني) من كثرة العمل ووفرة الجهود .

هذا ما كان من أمر الجمعية واحتياطاتها . أما الشعب فإن هياجه كان يتزايد كل ساعة وفي صبيحة الاثنين ١٣ يولييه اكتظت الميادين بالناس وتألقت فرق وطنية من الأحياء المختلفة فكنت تسمع أن هذه فرقة متطوعي (الباليه رويال) وتلك فرقة متطوعي (التويلري) وهكذا . وسرعان ما تم تنظيم هذه الفرق . وجعل على كل واحدة منها ضابط وتولى قيادة الجميع قائد عام . ثم ألغيت الشارة الخضراء وجعل مكانها اللونان الأحمر والأزرق وهما لهنة مدينة باريس وبدأت دوريات المتطوعين تطوف شوارع المدينة فعلا . ولم يكن ينقصها غير السلاح .

وفي يوم ١٤ يولييه عاد الناس يلتمسون السلاح في كل مكان وقد ضاقوا ذرعا بتلك الوعود التي كانت بلدية باريس تعلمهم بها

كلما طلبوا إليها أن تدمم بالسلاح فحملوا على (الأتويل ديزانفاليد) وقد بلغهم أن بها كمية هائلة من الأسلحة واقتحموها رغم حاميتها واستولوا منها على ٢٨ ألف بندقية وأخذوا كل ما كان فيها من سيوف وخناجر وأسلحة متنوعة .

وكانت قد راجت إشاعة منذ الصباح بأن الحكومة صوبت مدافعها من سجن الباستيل على شارع سانت انتوان استعداداً لمقاومة الجماهير وتشتيتهم والباستيل إذ ذاك عنوان الاستبداد وركن من أركان الاستعباد . وكان حصناً عتيقاً ذا حجور معتمة بها سلاسل وأغلال أعدها الملوك لأعدائهم الذين يحقدون عليهم لأمر ما عظم أم تفه . فكانوا يلقونهم فيه من غير تحقيق ولا محاكمة حتى إذامات أحدهم في ظلمته الموحشة أخرجوه ودفنوه سرّاً باسم مستعار ليظل أمره مكتوماً إلى الأبد .

وقد أبدع الكاتب الانجليزي تشارلس دكنز في تصوير هذا السجن وبيان أثره في نفوس ضحاياه حين كتب روايته المشهورة (قصة المدينتين) فانه جعل مدار قصته نزيلا من نزل ذلك السجن كان في شبابه طبيباً معروفاً في باريس . ووقع له يوما وهو في نزهة على ضفاف السين أن اعترضته عربة بها اثنان من الأشراف حملاه على أن يذهب معهما إلى قصرهما وهناك عرضا

عليه فتاة أخذتها نوبة من الجنون وفتى جريحا في صدره يكاد يكون في الهالكين . فلما وقف الطبيب بالفتى عرف منه أنه شقيق تلك الفتاة وأن أخته تزوجت منذ زمان من شاب تحبه ويحبها ثم رآها أحد النبيلين صاحب القصر فحدثته نفسه باغتصابها فعرض على زوجها أن يحملها على ما أراد فأبى كل الأباء فسامه سوء العذاب وجرعه البلاء ألوانا حتى قضى نحبه . فمد يده إلى زوجته وسبأها فما بلغ الخبر أباه حتى مات غما . واقتفى الغلام أثر أخته إلى هذا القصر فكان جزؤه ذلك الجرح المميت . وقد قام الطبيب على علاج الفتاة بعد موت أخيها هذا أسبوعا كاملا ولكنها لحقت بأفراد أسرتها جميعا إلى الآخرة . وقد رأى الطبيب أن يشكو أمر هذين الشريفين إلى الحكومة فقرر ما وقع له في رسالة ثم رفعها إلى الوزير ولكنه لم يلبث أن أخذ من داره عنوة وألقى في سجن الباستيل بعد أن قابله الإخوان في الطريق وأظهر له رسالته التي بعث بها إلى الوزير ومزقاها على مرأى منه أما هو فلبث في السجن ثمانية عشر عاما خرج بعدها كما تخرج الموتي من القبور يوم النشور لا تقوى عيناه على مواجهة الضوء ولا تعي ذاكرته صورة أقرب الناس إليه . وإنما أوردت لك هذه الصورة لتعرف منها نوع الجنائيات التي كان يلقى مقترفوها في هذا السجن من أجملها

ولنعرف بأى عين كان ينظر الناس الى هذا السجن ولتقف على ما كانت له من رهبة فى نفوسهم

فلما سمعوا بأن الحكومة قد صوبت مدافعها عليهم من فوقه سار إلى رئيس حاميته وفد منهم يطالبه بسحب المدافع وكانت الجموع قد بدأت تتدفق أفواجاها من أنحاء باريس منذ الساعة التاسعة صباحا وهى تهتف وتصيح « الى الباستيل ! الى الباستيل ! » وظلت كذلك الى الثانية بعد الظهر . فاجتمع فى الساحة التى أمام السجن خلق كثير وهم يحملون الحراب والسيوف والبنادق ووقف حراس السجن فى أما كنهم على أتم أهبة ورفعت الجسور المتحركة عن الخندق الذى يحيط بالسجن استعدادا للنزال وامتنع قائد الحامية عن سحب مدافعه

وكان الشعب المتحمس مازال واقفا يصيح « الباستيل ! لا بد لنا من الباستيل ! » وكانت تربط تلك الجسور المعلقة سلاسل مثبتة فى الأرض . فهجم عليها أخيرا رجالان وأعمالا فيها ضربا بالفؤوس . وانضم اليهم غيرهم . فلم يلبث الجسر الأول أن هوى الى الأرض وعبر الناس عليه الخندق . واتجه غيرهم الى جسر آخر ليكسروه . ولكن الحامية أطلقت عليهم النار وقتلت منهم كثيرا فزادهم منظر القتلى حماسة وأكسبتهم رؤية الدم المراق وحشية وظلوا

فى مصارعة الأبواب والأقفال والنار من فوقهم تحصدهم حصدا نحو
 أربع ساعات وأخيرا أقبلت فرقة الحرس الوطنى بمدافعها فتغير
 الموقف وطلبت الحامية التسليم . أما (ديلونى) رئيسها فقد ذهب
 الى مستودع البارود الذى بالسجن وفى يده ثقب موقد يريد أن
 ينسف به الحصن ومن فيه ولكن رجاله أوقفوه ورفعوا علما أبيض
 وأداروا فوهات المدافع الى داخل القاعة رغبة منهم فى التفاهم مع
 الشعب وتسليم الحامية على شرط أن يسمح لها بالانسحاب آمنة
 على أرواحها غير أن المهاجمين أصروا على المطالبة بانزال الجسور أولا
 وفتح الأبواب وصاح رجل ممن كانوا فى الطليعة « أنزلوا الجسور !
 لن نمسك بأذى ! » ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير الى السجن .
 وكانت أول صيحة تجاوبت فى جوانبه . « نريد رجال الحامية انهم
 أطلقوا النار على اخوانهم . انهم يستحقون الأعدام ! » ثم اندفعوا
 خلفهم يتعقبونهم فى كل قاعات السجن ويقتلونهم حيث ثقفوهم .
 وبعد أن نقعوا غلة انتقامهم بكثرة ما قتلوا وحطموا ساروا
 فى موكب حافل ظافر وطاقوا أنحاء المدينة مهرجين معربدين حتى
 أدرتهم الأعياء فهجعوا . وعاد اليهم شىء من الهدوء فأخذوا يفكرون
 فى وسائل الدفاع عن أنفسهم اذ لا بد أن يأتى دور الحكومة
 فتنزل العقاب بالثائرين فقصوا ليلتهم فى تحصين المدينة بأن خلعوا

الآفارينز وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق واستكثروا من الحراب والرصاص . أما النساء فكانت مهمتهن حمل الحصى والحجارة الى سطوح المنازل تمهيدا لأمطارها على رؤوس الجند عند سيرهم في الطرقات .

وهكذا انقضت سحابة ذلك اليوم المشهود — يوم ١٤ يولييه الذى لا يزال يحتفل به الفرنسيون الى اليوم فى أنحاء العالم بأنه يوم الشعب ا يوم سيادة الأمة ا يوم عيد الحرية ا

الفصل الثامن

يوم ١٤ يولييه فى فرساي

مؤامرة البلاط

كان رجال البلاط منذ أصابت نفوذهم تلك اللطمة التى تحدثنا عنها فى الفصل الخامس يتآمرون بالجمعية الوطنية وبالشعب ويضعون الخطط لاجداث انقلاب حكومى يعرض عليهم ما خسروه ويعيد اليهم سلطانهم الضائع فتم اتفاقهم على معالجة الموقف بالصورة الآتية .

نظرا لما أعلنته الجمعية الوطنية فى قرارات ١٧ يونيه الشهيرة وما ترتب على ذلك من انتزاع قسط وافر من سلطة الملك لا بد أن يعيد الملك على مسامع الجمعية تصريحات ٢٣ يونيه الشهيرة . ويحمل أعضاؤها بقوة السلاح على قبولها والاذعان لما جاء فيها . ثم بعد ذلك — وعلى الرغم من ذلك — يصدر أمره بحل الجمعية ليتخلص منها ومن قراراتها بصفة نهائية .

ونظرا لأن الجمعية قررت فيما قرره أن الضرائب التى كانت

تجبي في ذلك العهد ضرائب غير شرعية ولكنها قررت كذلك بقاءها بصفة مؤقتة طول مدة انعقاد الجمعية لتقييد الحكومة حتى لا تقدم على حل المجلس وإلا سقط حقها في جباية الضرائب طبعته الحكومة ما يزيد على ١٠٠ مليون من الجنيهات وأعدتها لمقاومة ما قد يصادفها من العقبات في جمع المال بعد حل الجمعية وكان البلاط قليل الثقة بمجهود أهل باريس وقوتهم ولم يكن يتصور أنهم سيوفقون إلى إنشاء حرس وطني منظم مجهز بالسلاح الكافي . ولم يكن يفهم كذلك أن الحركة ستتجاوز المظاهرات وتدخل في دور العصيان المسلح . فعول على ما عول عليه من حل الجمعية الوطنية والضرب على أيدي الشائرين وكان ذلك يوم ١٤ يولييه نفسه الذي سقط فيه الباستيل . وكانت الجمعية على شيء من العلم بما بيت لها البلاط من النوايا . وكانت قد أوفدت إلى الملك وفدين على أثر ما كان يصل إليها من أنباء الاضطرابات الواقعة في باريس تلتبس منه سحب الجنود من العاصمة . ولكن الملك لم يعر أحد هذين الوفدين شيئاً مما يجدر بهما من الاهتمام . فلما جاءت أنباء الباستيل جلست الجمعية تعد وفداً ثالثاً لمقابلة الملك وإعادة التماساتها السابقة على مسامحة ووقف ميرابوز ودهم بنصائحهم قائلاً

« أبلغوه أن جنوده الذين غمرونا بقضهم وقضيتهم قد غمرتهم أيدي أمرائه وأميراته وحاشيته بالتحف والهدايا والمنح. أبلغوه أن هؤلاء الجنود الأجانب بعد أن امتلأت أفواههم ذهباً وخمراً باتوا يتغنون باخضاع فرنسا ويتوعدون بتشتيت الحرس الوطنى »

ولكنه ما كاد يتم كلامه حتى أقبل الملك وكان قد وقف على حقيقة ما وقع فى باريس . وطارت نفسه اشفاقاً من هول العواقب فأرسل الى الجمعية من يعلنها بأنه قادم ليطمئن أعضائها بنفسه على حسن نواياه . فقابل الناس هذا الخبر بالاستبشار والتهليل ولكن ميرابو حذر زملاءه من أن يسترسلوا فى عواطف قد تكون سابقة لأوانها ثم عقب بقوله . « فلننظر اذن ما هى تلك النوايا الحسنة التى يريد جلالته أن يفضى بها إلينا . ان دماء اخواننا تسيل فى باريس فليكن احترامنا الحزين هو أول ما يقابل به الملك نواب هذا الشعب التعس . أن فى صمت الشعوب درساً للبلوك ! » فعاد المجلس الى هدوئه وسكونه الذى لازمه طول الأيام الثلاثة الماضية

ودخل الملك بغير حراس . ولم يكن خلفه الا أشقاؤه الأمراء فقابله الأعضاء فى أول الأمر بالصمت العميق . ولكنه تقدم اليهم

وخاطبهم قائلاً أنه يشق في حكمة تصرفاتهم وأنه اعتماداً على حبهم وولائهم له قد أمر بسحب الجند من باريس وفرساي وأنه يعول على اخلاصهم في تلافي الحالة التي وصلت إليها باريس . فقبولت كلماته الأخيرة بالارتياح التام والتصفيق . وقامت الجمعية بكامل هيئتها فأحاطت بعزيمته وشيعته الى قصره وسط التهليل والهتاف ثم عاد فصرح بعزمه على استعادة نكر وطلب الى المجلس أن يتوسط بينه وبين الوزير وأن يعمل على إعادة حسن التفاهم بينه وبين الشعب

وفي ١٥ يولييه سار بهذه الأنباء السارة وفد الى باريس فتلقاه الناس بالترحيب والحماسة واتفقت الكلمة على أن ينصب (باي) رئيس الجمعية محافظاً لباريس وأن يتولى الجنرال لافاييت رئاسة الحرس الوطني

وسافر الملك من فرساي الى باريس في ١٧ يولييه ليعزز بظهوره شخصياً روح التفاهم الجديد بين الحكومة والشعب . ووافق على تعيين باي ولافاييت في مكانيهما . ورأى الثوار اكراماً له أن يضموا لون الملكية الأبيض الى لونيهما الأزرق والأحمر فتألفت من ذلك الراية الفرنسية المعروفة اليوم

وفشلت بذلك مساعي البلاط في احداث الانقلاب الحكومي



الرئيس باي (Bailly)

الذى دبروه . وفر كثير منهم الى ايطاليا وغيرها وأعيد نكر . ودخل
حدود فرنسا دخول القائد اذا عاد الى وطنه من ميدان القتال
وعلى رأسه أكاليل النصر . ولكن لا ينبغي أن ينسى الانسان أنه
لم يكن مدينا بمركزه هذا الذى حصل عليه من نفوس الفرنسيين
لما قام به من جلائل الأعمال . ولكنه كان مدينا به لما لاقى من
الارهاق والاضطهاد على يد الملك والبلاط .

الفصل التاسع

آثار سقوط الباستيل

يجدر بنا قبل أن نختم هذه المرحلة من تاريخ الثورة أن نتقف قليلا لتأمل فيما أحدثه سقوط الباستيل من النتائج الجسام .

لقد كانت المعركة الدائرة بين الشعب والحكومة قبل يوم الباستيل معركة كلامية والنزاع فيها نزاعا سياسيا لا يتعدى القول واصدار القرارات . فالجمعية الوطنية أصدرت قرارات ١٧ يونيه فرد عليها الملك بمناورة ٢٣ يونيه ونجح نواب الشعب في ضم بعض نواب الطائفتين الآخرين اليهم يوم ٢٤ وأعقب ذلك تسليم الملك في ٢٧ واصداره الأوامر الى هؤلاء النواب بان ينضموا الى الطائفة الثالثة . كل ذلك كما بينا كان صراعا في ميدان القول والسياسة وكان لا بد أن ينتقل الصراع يوما ما الى ميدان العمل فتقف قوة مسلحة أمام قوة مسلحة أخرى ولقد وقع ذلك في ساحة الباستيل يوم ١٤ يوليه وخرج الشعب ظافرا من أول معركة دموية وقعت بينه وبين الحكومة كما خرج ظافرا من جميع المعارك (الدبلوماسية) التي سبقت ذلك .

ولكن لا ينبغي أن ينسى الانسان أن رجال الجمعية الوطنية وأهل الطبقة الوسطى لم يكونوا ينظرون بعين العطف الى هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الشعب . وهذا الاندفاع الشديد الذى دلت بوادره على وعورة الطريق التى سيركبها العامة فى معارضتهم للسلطة القائمة . ولقد زاد الطين بلة أنه ظهر فى هذا الموقف العصيب من جعل دأبه أن يصطاد فى الماء العكر كالدوق أورليان ابن عم الملك فإنه بينما كان بائى ولافاييت يعملان على المحافظة على النظام وبينما كان المجلس يحاول تحقيق رغبة الملك فى الوساطة بينه وبين الشعب كان الدوق أورليان هذا وأمثاله يثيرون خواطر الشعب ويدفعونه الى الثورة والعصيان ، بل بينما كان بائى يعمل ليل نهار لتنظيم أعمال لجنة التموين التى أنشئت فى باريس لوقاية أهلها من المجاعات وارتفاع الأسعار كان دوق أورليان يعمل فى الخفاء على عكس هذه الجهود واحباط هذه المساعي المشكورة فكان يشتري الكميات الهائلة من القمح ويملاؤها خزائنه ليخرجها من السوق ويساعد بذلك على استحكام الأزمة واشتداد الضيق^(١) ولقد كان الدوق أورليان هذا فى أول أمره طامعاً فى الملك والوصول الى العرش ولا سيما بعد أن رأى عقم الملك والملكة وأنهما



لوی فیلیپ — دوق اورلیان

ظلا من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٦٨ دون أن يكون لهما عقب .
فلما عولج الملك سنة ١٧٧٧ ووضعت الملكة بنتاً سنة ١٧٧٨ ثم
غلاماً سنة ١٧٨١ ضاع أمله وأراد أن ينتقم لنفسه باخراج مركز
الملك على النحو الذى أسلفت لك وبأثارة الاشاعات السيئة حول
الملكة والنيل من سمعتها واخلاصها للملك . وكان ذلك عليه هيناً سهلاً
بعد ما رأى الناس من سلوك الملكة واستهتارها وبعد ما سمعوا
عنها فى قضية الكردينال دى روهان من أنها كانت تكاتب هذا
الرجل سرّاً وأنها قابلته ذات ليلة فى ناحية من نواحي حديقة القصر .
وأنها كلفته أن يشتري باسمها عقداً ثميناً من الماس النادر — وعلى
الرغم من أن التحقيق أثبت أن تلك المكاتبات كانت زائفة لم تكتبها
الملكة وأن المقابلة نفسها كانت زائفة أيضاً لأنها تمت بين الكردينال
وبين سيدة أخرى تشبه الملكة فى شكلها . وأن الكردينال كان
مخدوعاً فى كل ما حصل وأنه كان حسن النية فى كل ما فعل . فان
الدوق أورليان وأمثاله استغلوا هذا الحادث لمصالحهم وأثاروا حول
اسم الملكة التهم والشكوك ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم وتنفيذ نواياهم
ولقد فتح دوق أورليان هذا حدايق قصره للشعب فكانوا
يجمعون فيها رسم لهم بنفسه خطط المظاهرات ويملى عليهم صور
الهتاف ويمدحهم بالمال والآراء ويطلقهم على خصومه ويحرقهم

بهم طمعاً في اسقاطهم والوصول الى العرش . وكان ذلك سبباً في استعصاء الأزمة على من حاول علاجها من المصلحين . تلك كانت حالة الطبقات المختلفة عقب سقوط الباستيل . فاما السوق من أهل باريس فقد أضراهم هذا النجاح وزاد ضراوتهم ما كان يغريهم به دوق أورليان وأمثاله للنكاية بالملك والبلاط . وأما رجال الجمعية وأهل الطبقة الوسطى فكانوا يحذرون الشعب ويراقبون حركاته بغاية الاحتياط حباً منهم في المحافظة على النظام وأما الملك فكان يريد التقرب من الشعب والتحجب اليه طمعاً في تهدئته واخضاعه . وأما البلاط فكان لا يزال على عمايته يفكر في الانتقام وفي إعادة العهد القديم .

أما في الأقاليم فما كادت تصل أنباء الباستيل الى أهلها ويقفون على ما جرى في باريس من أعمال العنف حتى سرت اليهم العدوى وأحبوا أن لا يكونوا وراء أهل باريس في الشهامة والوطنية فأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة عليهم للأشراف ثم قاموا الى قلاعهم وهي في نظرهم تمثيل الباستيل فدمروها وأحرقوها . ثم أوقعوا في أهلها قتلاً وتمثيلاً . وانتقموا لأنفسهم من مظالم الأجيال السالفة في أشخاص معاصريهم من الأشراف !

الفصل العاشر

مساء ٤ أغسطس

خاتمة العهد القديم

عرفت أن المريكز لافاييت قائد الحرس الوطنى كان زعيم النبلاء الأحرار الذين آزرُوا الثورة وجأهُروا ابتأيد مبادئ الحرية والمساواة وكان قد اشتہر قبل حوادث الثورة بمحاربته فى صفوف الأمريكان فى حرب استقلالهم . فلما أخذت الجمعية الوطنية فى فرنسا على عاتقها وضع دستور للبلاد تقدم اليها لافاييت هذا باقتراحه الوجيه الذى رأى فيه أن تبدأ الجمعية عملها بتقرير مبادئ عامة لحقوق الإنسان على مثال اعلان الأمريكان وثيقتهم المشهورة التى ضمنوها حقوقهم فى الاستقلال فى مؤتمر فيلادلفيا سنة ١٧٧٦ فبدأت الجمعية تتناقش فى تقرير هذه المبادئ فى اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٧٧٩ ولكن رفع للجمعية فى مساء ذلك اليوم تقرير هام عن الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى الأقاليم على أثر ما وقع فيها من التخريب بعد سقوط الباستيل

وتلى هذا التقرير على الاعضاء وكان مما ورد فيه أن الخطابات تترى من جميع الأقاليم وفيها أن ممتلكات الناس على اختلاف أنواعها أصبحت نهباً يتقاسمه العابثون الأشرار . وأنهم يحرقون قصور الأشراف في بعض الجهات ويخربون الأديرة ويسلبون كل ما وصلت إليه أيديهم في مزارع الأغنياء . وأنهم قد كفوا عن دفع ما عليهم من الأموال الأميرية والضرائب الاقطاعية . وأن القوانين أصبحت ملغاة لا عمل لها والحكام أصبحوا صورياً لا سلطان لهم .

فأثارت الجمعية أزاء هذه الحالة أن تعمل على تهدئة الشعب من جهة وتحقيق رغباته من جهة أخرى بأن تعلن انتهاء العهد القديم . وبطلان جميع الامتيازات ولكنها أشفقت أن يكون مثل هذا الاعلان مدعاة الى رجوع الملك الى صف الأشراف وسبباً في احداث مشا كل جديدة غير أن الله وفقها في الوصول الى هذه الغاية توفيقاً تاماً اذ قام أحد الأشراف واقترح على زملائه أن ينزلوا عن امتيازاتهم فقبول اقتراحه بالتصفيق الشديد وصيحات الاستحسان العالية واهتزت أريحية الأشراف تحت تأثير هذه الحماسة البالغة وغلب الانفعال على عواطفهم ورأوا أن الظروف تقضى باندماجهم في جمهور الشعب وأخذوا يتنافسون في الأدلاء بأمثال هذا الاقتراح

ويفاخر كل واحد منهم بأن يعرض على الجمعية النزول عن حق من الحقوق القديمة سواء أ كان يملكه أم لا يملكه . وبقية الأعضاء من حولهم يقابلون هذه المباراة بالتحية الكريمة والتهنئة الحارة الى أن انتصف الليل وقرارات النزول تنهال سراعاً بعضها فوق بعض حتى لم يعد يبقى شيء من آثار العهد القديم .

وختمت الجمعية قراراتها في تلك الليلة المشهورة بأن أعلنت رضائها عن الملك لويس السادس عشر وتبرعت له بلقب « معيد الحرية الى فرنسا » .

وأقيمت قبيل الصباح صلاة شكر لله على هذا التوفيق ولقد كتب بعض أعداء الثورة عن هذه الليلة فوصفها بأنها كانت (سنت برتليو الملكية) والحقيقة أنها لم تكن الا (سنت برتليو الامتيازات ومساوى الملكية) فانها اكتسحت رذائل عهد الاقطاع وأعلنت انتهاءه وحررت أعناق الناس من أغلال السخرة . ومن قيود الصيد وارهاق الضرائب الفادحة ووقفت حداً فاصلاً بين عهد قديم كان كل شيء فيه ملكاً لبعض الأفراد وعهد جديد أصبح كل شيء فيه ملكاً لمجموع الأمة . لقد غيرت تلك الليلة وجه فرنسا فأصبح الفرنسيون جميعاً متساوين في الحقوق وأصبح لكل واحد منهم الحق في شغل أى منصب من المناصب

العالية . وفي أن يطمع في امتلاك شيء لنفسه خاصة دون أن يكون لغيره حقوق عليه . وفي أن يختار لنفسه ما شاء من المهن والصناعات بعد أن كان محروماً من هذا الحق أو مقيداً في استعماله بأثقل القيود . ولقد تمت في تلك الليلة ثورة لا تقل عن ثورة ١٤ يوليه في نجاحها وبعد آثارها . فانها منحت الأمة حق السيادة على المجتمع كما أن ثورة ١٤ يوليه منحتها السيادة على الحكومة .

وهكذا مرت حوادث الثورة سراعاً تبعاً ففي ١٧ يونيه قضى على ما بين طوائف الأمة من الفوارق . وانقلبت الجمعية العمومية الى جمعية وطنية .

وفي ٢٣ يونيه قضى على نفوذ الحكومة الأدبي . وفي ١٤ يوليه قضى على سلطتها المادية — وورثت الجمعية الوطنية ذلك النفوذ كما ورث الشعب هذه السلطة . وأخيراً حل يوم ٤ أغسطس وكان خاتمة هذا الفصل الاول من رواية الثورة وهو الفصل الذي انتقلت فيه السلطة من يد الى يد . ووقعت فيه تلك التغيرات الاولى التي أقيم عليها بنيان الثورة فيما بعد .